تناقضات الصراع الثقافي في مصر ..

بقلم الكاتب المصري أمير اسكندر

الصراع هو جوهر الوجود. وسيحه الحي.

الصراع بين النقائض، هو لب العملية الجدلية. التي تتطور من خلالها الحياة. ويتقدم المجتمع وما من لحظة من لحظات التاريخ، يتوقف الصراع او تخمد حدوته. قد تتغير القوى، وتتبدل المحاور، وتتسع الجبهات او تتسع. ولكن الصراع يظل مشتعلا كالنار الازلية التي لا تنطفىء ابدا، ما دامت الارض تدور، والحياة تسعى.

وعلى عكس ما يبدو في ظاهر الامور احيانا. لم يتوقف الصراع الاجتماعي والفكري في مصر يوما. حتى في اللحظات التي كان وجه الحياة الاجتماعية والفكرية، يلوح هادئا كسطح البحيرة الساكنة. وربما كانت السجون والمعتقلات، والمحاكمات السرية والعلنية، والمحاولات الاغتيالية، التي لم تهدأ في السنوات الماضية، تعبيرا واضحا – حادا – عن ذلك الصراع الاجتماعي والفكري او الصراع الطبقي – بتعبير ادق – الذي ظل مستعرا. ولا يزال، في اعماق المجتمع المصري، بصرف النظر عن طبيعة القوى المتصارعة، في كل مرحلة من المراحل المختلفة في مسيرة الثورة المصرية.

ويخطىء من يستخلص من بعض المظاهر البادية على السطح. او حتى من بعض الاجراءات التي تتم او القرارات التي تتخذ. ان الامر قد انتهى في مصر الى درجة الحسم وان قوى اليمين بمختلف فئاتها قد باتت سيدة الحلبة بغير منازع. كما يخطىء بنفس القدر ذلك الذي يستنبط من مظاهر المقاومة الداخلية المتفاوتة الشدة والكثافة والاتساع، ان اليسار قد استعاد مواقعه المفقودة او المفتقدة. وانه بات يملك الان القدرة على الحركة المتوازية مع حركة اليمين، والمتكافئة مع بسارية الشارع المصري الموضوعية والعفوية في هذه الظروف. يبدو الامران كلاهما، بعيدين عن الواقع الذي تعيشه مصر في هذه المرحلة القلقة، المشحونة بالاحتمالات الكثيرة، والتي تبدو احيانا متناقضة.

ما بين الحلم والحقيقة

ما هي طبيعة التناقضات التي كانت تسيطر على البنية الثقافية المصرية، فيما قبل المرحلة الراهنة ؟ نقصد بالتحديد فيما قبل المرحلة السياسية الراهنة : مرحلة السادات فيما بعد فك الارتباط، والانفتاح، وكامب ديفيد ؟

سنحاول الاجابة على هذا السؤال بتقديم الصورة ذات البعدين، البعد الرسمي والبعد الواقعي، اى البعد اللفظي والبعد الفعلي. او لنقل بتعبير اخف وطأة بعد الحلم وبعد الحقيقة.

كان القائد الراحل جمال عبد الناصر يقول : " علينا ان نجابه ثورتين، سياسية نجابهثورة ثقافية، والثورة الثقافية ضرورية لتدعيم الكيان السياسى المنشود، والكيان الاجتماعى المأمول " ولقد حدد هو نفسه محتوى الثقافة التى كان ينشدها : " الثقافة التى نريدها هى ثقافة الشعب المعادية للاستعمار ثقافة الشعب المعادية للاقطاع، ثقافة الشعب المعادية للاستغلال، استغلال الانسان لاخيه الانسان .. " ولقد مضى بعد ذلك ليؤكد ان "الثقافة ليست ترفا، كما ان الخبز الذى نقتات به لا يمكنان يكون ترفا، دائما هو من ضرورات الحياة فالثقافة فى المجتمع الاشتراكى ثقافة للجماهير، فلا طبقية فى الثقافة. فلا بد ان تكون الكتيبات فى ايدي الشعب، وأن يصل الكتاب الى جميع القرى، وان توجد دور العرض السينمائي فى جميع القرى، ومراكز الثقافة فى كل قرية من القرى.

فى نفس الخطاب الذى كان القاه بمناسبة عيد العلم طالب عبد الناصر بالعلم للجميع " علم بلا طبقية، علم بلا احتكار، علم بلا كهنوت. علم مفتوح للجميع، من اجل الجميع، كل بقدر جهده، واستعداده، وبحدود طاقته ... " واكثر من ذلك طالب باندماج المثقفين فى صفوف الشعب، او سد الهوة بين الشعب والمثقفين :

" يجب ألا يظل هناك انفصال بين الشعب والمثقفين. يجب ان يثق الشعب فى المثقفين ثقة كبرى، ولن يأتى هذا الا اذا شعر بأن المثقفين يعملون من اجل مصلحته ... "

ذلك هو بعد الحلم اذن. فما هو بعد الحقيقة ؟

الثورة التي لم تتحقق

كانت الحقيقة تتجلى فى مجموعة من الظواهر. اول هذه الظواهر الصادمة بغير شك هى نسبة الامية التى تراوحت على الدوام حول الـ ٧٠ بالمئة من شعب مصر.

وكانت الظاهرة الثانية هى تركز الثراء الثقافى فى جانب، وتركز الفقر الثقافى فى جانب آخر. لا يبدو هذا فى تمركز وسائل توصيل الثقافة فى القاهرة وحدها (المسرح والسينما، ودور النشر، والصحف والاذاعة والتلفزيون ... الخ) بل يبدو كذلك فى نسبة الخدمات التعليمية التى تتمتع بها القاهرة بالنسبة الى سائر الاقاليم الاخرى فى البلاد.

وينبغي القول بوضوح ان هذا الانقسام الثقافي كان يعكس انقساما اقتصاديا. او بتعبير ادق انقساما طبقيا. حتى القول بالتناقض بين "العاصمة" والاقاليم، ليس فى جوهره الا تجليا آخر لذلك الانقسام الطبقى، لان العاصمة فى مصر وما تزال، بؤرة الثراء الاقتصادي، بينما تمثل المناطق الريفية خارج العاصمة الشرايين التى تنزف ماديا وحضاريا، على الدوام.

لم تكن هناك اذن ثقافة للجماهير. فلم تصل الكتيبات الى ايدى الشعب، ربما لان غالبية هذا الشعب لا تقرأ. ولم توجددور العرض السينمائى فى القرى لان العاصمة وحدها استأثرت بنسبة تزيد علىّ ٧٠ بالمئة من دور العرض فى مصر كلها بمدنها وقراها. ولم يقض على "الاقطاع الثقافى القائم على حق أقلية ضئيلة"، ولم يصبح العلم "بلاطبقية وبلا احتكار وبلا كهنوت" كما كان يطالب على الاقل جمال عبد الناصر، بل ظل طبقيا محتكرا،من حق الاقلية الضئيلة، لسبب منطقى وبسيط للغاية، هو ان البنية الثقافية فى مجتمعنا، وفى اى مجتمع، ليست ولا يمكن ان تكون، بنية مستقلة بذاتها، كالدائرة المغلقة على ذاتها، فهى دائما ابدا جزء من بنية اعم واشمل هى البنية الاجتماعية ككل. وليس فى هذه البنية الاجتماعية دوائر مغلقة، .وانما دوائر متضايفة، تتداخل مع بعضها البعض، وتدور جميعها حول محور واحد.

لنقل اذن بوضوح وصراحة، ان مصر لم تعرف ثورة ثقافية حقيقية حتى الان، ولنقل ايضا بنفس الوضوح والصراحة ان الانقسام الطبقى كان يتجلى – فى احد مظاهره – فى ذلك الانقسام الثقافى بين قاعدة الهرم الاجتماعى وقمته الشاهقة. وبعد ذلك لا ينبغى ان نتردد فى وصف مظاهر النمو التى ظهرت على سطح البنية الثقافية المصرية فى الستينات بوجه خاص. بأنها فى حقيقتها مظاهر كمية كانت تعكس نمو بورجوازية المدن. وبورجوازيتها الصغيرة بوجه خاص. مع تأكيد على العاصمة فى الاستئثار بالنسبة الاكبر من البورجوازيتين.

لم يكن ذلك كله بغير سبب. ولم تكن تلك المظاهر مجرد ساحات مستقلة بغير جذور فى البنية الاجتماعية دائما. الاسباب تبدو الان – اكثر من اى وقت مضى – واضحة تماما. لمن يريد ان يرى. سنحاول الان تلخيصها باختصار.

جذور التناقضات الراهنة

١– "ان التحولات التى قادتها البورجوازية الصغيرة، واقسام من البورجوازية المتوسطة، لم تكن تحولات جذرية، فضلا عن انها تمت بمعزل عن الجماهير، اى عن مشاركتها الحقيقية، وفى اعتماد شبه كامل على الاجهزة البيروقراطية وحدها. ومثل هذه التحولات فى ظروف العالم الثالث، قد تنتج عنها بعض الانجازات التحررية والتقدمية المهمة والمؤثرة، ولكنها لا تستطيع بمنطقها الفوقي، ان تحفر فى الصخر، المجرى الحقيقي لثورة جذرية. وهى تظل حتى النهاية بؤرة لصراعات تلك الاجهزة وميولها واتجاهاتها وتعبر مصالحها فى كل فترة. بالاضافة الى انها تبقى دائما عرضة لرياح الارتداد والنكوص والتراجع، تهب عليها من داخل الاجهزة او من خارجها، او من خارجها، او منهما معا، على اساس ان ما يجرى من تغيرات داخل الاجهزة هو انعكاس لتغيرات تجري خارجها ".

٢– "ان المعارك الساخنة ضد الاستعمار والامبريالية، التى دارت فى بعض المراحل على الصعيد السياسى، لم تصاحبها فى الواقع وعلى نفس المستوى، معارك ضد ثقافة الاستعمار والامبريالية وممثليها. فبينما كان هناك صراع ضد الاحلاف والقواعد العسكرية والمشروعات الامبريالية

كان هناك اغفال، وشبه تهادن. مع هذه القواعد فى شكلها الثقافي، داخل مصر نفسها. فماذا كانت تمثل مؤسسة "فرانكلين" الشهيرة، حينذاك، ودار "الكرنك" ؟ بل وماذا كانت تمثل الجامعة الامريكية نفسها ؟ واهم من ذلك، ماذا كان يجرى بالنسبة لاوضاع اشد خفاء، واكثر قدرة على المراوغة، مثل مناهج التعليم، فى المدارس والجامعات، ومثل اجهزة توصيل الفكر والثقافة عموما على المستوى الجماهيرى ؟ الم تكن تلك مظاهر – او لنقل حقائق – تتجسد فيها عمليات الاختراق الايديولوجي الامبريالى، لبنيةثقافية كان يفترض انها تتحرك وتتجه فى نموها الى معاداة الاستعمار والامبريالية ؟

٣– "ان مراقبة الخط البيانى لتطور الايديولوجية التى كانت سائدة، يشير الى كثير من التعرجات والانحناءات الحادة. من "مؤتمر البحث عن ايديولوجية مصرية" الى ايديولوجية "عربية" ثم ايديولوجية التوازن والتوفيق وتذويب الفوارق بين الطبقات بعد الانفصال. وفى غضون ذلك، ظل التوجه اقتصاديا نحو الشرق، واستمر فكريا نحو الغرب. وتواصل الحديث بغير فتور عن الاشتراكية "المنبثقة" من واقعنا، او الاشتراكية "العربية"، وما شابه ذلك من صيغ ومترادفات لم تكن في جوهرها تبحث عن اصالة مفتقدة او هوية ضائعة، بقدرما كانت تبحث عن "الاحلاف" و "التحالف" مع ما اصطلح على تسميته بالاشتراكية العلمية فى التراث الفكرى العالمى. خفتت تلك الاصوات – ولكنها لم تصمت – بعد ان حاول جمال عبد الناصر ان يحسم الخلاف اللفظى المفتعل بقوله : "ان هناك اشتراكية واحدة. وان اشتراكيتنا هى طريق عربى الى الاشتراكية". فى الحقيقة فى الممارسة العملية، كان العمل يجرى بدأب على افراغ هذا القول من محتواه ".

٤– "ان تمزيق قوى اليسار، وتمزقها. لم يكن تحليلا سطحيا فحسب. بل كان تجسيدا للتمزق الايديولوجي فى الاساس. كان ظاهرة ضاغطة بثقلها على المجتمع. من حيث الفكر والممارسة معا " ان الصراعات المتفاوتة الحدة والصراحة بين القوى الوطنية المختلفة الاصول والمواقع، قد انهكت اليسار وارهقته حقا، ولكنها الى جانب ذلك، وربما قبله، كشفت الرصيد الحقيقى للتحولات الاجتماعية التى كان من الممكن لها ان تتأكد وتتجذر – فى ظل شروط معينة – وجعلتها بغير غطاء. على المستوى المحدد للبنية الثقافية كيف كان من الممكن احداث تحولات جذرية حقيقية – طبقا للكلمات التى كان يقولها جمال عبد الناصر والتى اشرنا الى بعضها فيما سبق – بعناصر قيادية على قمم المؤسسات ليس ثمة شك فى ولائها واخلاصها لليمين الرجعى، وفى اندماجها الكامل بالايديولوجية الامبريالية ؟

٥– "ان ما كان يطالب به جمال عبد الناصر من وحدة بين الشعب والمثقفين، من جانب الاجهزة القابضة على السلطة، تارة عن طريق الترغيب، وتارة اخرى عن طريق التهديد، قد أدى – فيما أدى اليه – ليس فقط الى فقدان الاستقلال فى الرؤية خارج منظار السلطة، وانما ايضا الى اضعاف "القدرة على الابداع. ولم تكن النتيجة الوحيدة لذلك هى الانفصام بين المثقفينوشعبهم، وانما كانت هناك نتيجة اخرى لا تقل عن ذلك خطرا، هى وقوع المفكرين فى دائرة رد الفعل. بل وكانت لها نتيجة ثالثة كذلك هى انفصام المثقفين داخل انفسهم، فصاروا جزرا منعزلة، لا تيارا عارما متكاملا مستقلا داخل حركة عارمة ومتكاملة ومستقلة.

التيارات الفكرية خلف المتاريس

ان البنية الثقافية فى مصر قد نفضت عنها كثبان الرمال المتحركة وبدت كما يبدو الهيكل العظمي فى ضوء الاشعة تحت الحمراء، تضاريسها الواقعية. ليس ذلك بالتأكيد بفضل اتفاقيات فك الارتباط والانفتاح، وكامب ديفيد – وان يكن بعض نتائجها – ولكنه بالقطع بفضل الاستقطاب الطبقى الذى انطلق من عقاله. ان كل قوة من القوى الطبقية تدفع بطلائعها الى الوقوف خلف متاريسها الايديولوجية. واللحظة تشبه اللحظات التى تسبق نشوب الحرب او انفجارات الشوارع، او .. الطوفان.

واذا تأملنا لوحة " المتاريس" سوف نجد التيار الثيوقراطى قد استعاد عنفوانه بعد ان منحه السادات حرية الحركة. طلائعه "الاخوان المسلمون" الذين حوربوا من قبل بالسجون والمعتقلات، ولم يخادعوا فى العلن بالفكر والممارسة، صمت قوتهم ولم تضعف. واجنحته الجماعات الدينية المتطرفة التى تلمع فى ايديها الاسلحة، وتفوح منها رائحة النفط المصرية تحت سواتر المؤامرات الطائفية والعنصرية.

والى جانبها – مع حفظ المسافات – سوف نجد اليسار الذى كان يدعى الليبرالية. وقد تحول الى داعية لكل عناصر الايديولوجية الطفيلية. ايديولوجية الانفتاح. والعزلة الانتهازية. والسلم فى استغلال التراب الوطنى. والركوع عند حائط المبكى الذى صار لديه جزءا من العتبات المقدسة!

وخلف هذين التيارين. يحاول الرئيس المؤمن ان ينظم مليشيا عسكرية دينية داخل حزبه. اصدر اوامره اخيرا بتعيين مسؤول عسكرى لها. ومسؤول دينى ايضا. وليس بعيدا ان نشهد فى القريب عرضا لاصحاب القمصان السوداء فى شوارع القاهرة حتى تكتمل اركان دولة العلم والايمان. ويتم آخر " انفتاح على العالمين!

وفى الجانب الاخر سوف نجد التيارين الوحيدين اللذين يمكن ان يمثلا البديل الحقيقى القادر – فى ظل شروط معينة – لكل فصول تلك المسرحية الهزلية المأساوية. ان الناصرية المتبلورة حول صيغة نظرية واضحة ومحددة تستلهم انضج واخصب ما كان فى تجربة عبد الناصر والماركسية المتخلصة من تراثها الانقسامى المريض، والمتحلقة بمسؤولية ونضالية حقيقية حول نواتها المشعة النضرة، لقادرتين على ان تقيما سدا منيعا امام الطوفان القادم. (ليس ثمةبديل عن الجبهة الوطنية والقومية التقدمية. الجبهة الصلبة التى تستفيد من كل الدروس الثمينة التى قدمتها فى السنوات القليلة الماضية المنطقة العربية. الطريق ليس من لا يعرف ذلك ؟ ولكن اليس هو الطريق الوحيد ؟

مصر تسعى الى الوحدة الداخلية النضالية لا الى التشرذم والانقسام. مصر تبحث عن الدمقراطية الحقيقية حيث تصبح الجماهير الفعلية صاحبة القرار وسيدة المصير. مصر تتطلع الى تكامل لقمة الخبز مع حرية التعبير. مصر تتوق الى القطع مع الامبريالية، على المستوى الاقتصادى والسياسى والاجتماعى والثقافى فلقد سئمت لعبة الاستبدال الطبقى فى ظل التبعية البنيوية للامبريالية.

مصر تبحث عن ثورة لا عن انقلاب. ولن تحدث الثورة فى مصر الا من داخلها، وبداخلها. الذين يتصورون امكان تغيير مصر من خارجها اقل ما يقال عنهم انهم لا يرون ابعد من اقدامهم، وانهم سوف يغرقون فى رمال الصحراء قبل العبور. مصر تتغير على الدوام من داخلها. تتجدد فى كل الازمان من اعماقها. ينابيعها وحدها هى التى ترويها. وربيعها يتجلى دائما فى النهاية من صراعها الطويل المضنى، ضد الموت والفناء، آلاف السنين.

لنتعلم من جديد درس الجغرافيا السياسية. ولنحاول ان نقرأ مرة اخرى صفحات التاريخ!.